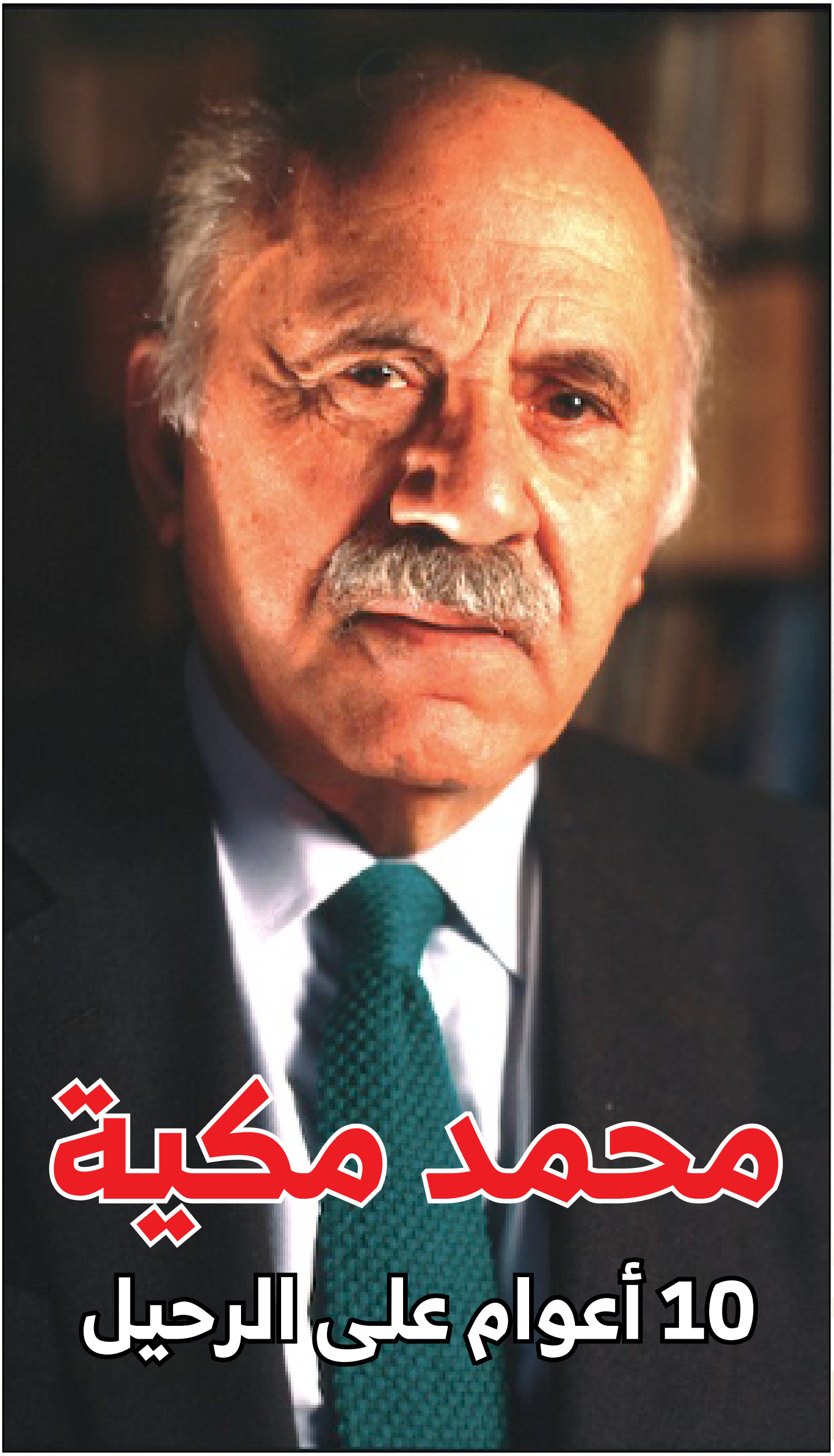

محمد مكية

10 أعوام على الرحيل

مراقيون

من زمن التوهج

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة

للإعلام والثقافة والفنون

www.almadasupplements.com

"20عاماً من التعبير الحر والمسؤولية الوطنية"

رئيس مجلس الادارة
رئيس التحرير

فخري كريم

العدد (5921) السنة الثانية والعشرون
الخميس (5) حزيران 2025

إنتماء العمارة.. وغربة المعمار

د. خالد السلطاني

قد يشي العنوان الذي اخترناه للمقال التحية، في تسعينية المعمار العراقي المعروف الدكتور محمد مكيه، قد يشي الى نوع من المفارقة، مفارقة تفصح بفعلها الاجرائي مدى الضرر الكبير الذي الحقه النظام التوتاليتاري البائد بالعراق، وبالثقافة العراقية، وبالمثقفين العراقيين؛ اذ كيف يمكن لنا ان نتصور بان معمارا قديرا ومهما في قامة " محمد مكيه "، لم يكن بمقدوره لسنين، لعقود من السنين، العمل في وطنه وزيارة بلده؟

كيف يمكن للمرء ان يتصور بان مثقفا يمتلك حضورا مميزا في المشهد الثقافي العالمي يمكن ان يستقبل "تسعينيته" (اكرر "تسعينيته!") في بلد غريب، وبعيد المدى عن وطنه؟! ومثال "مكيه" يماثل عديدين من مثقفي العراق المبدعين والمهمين، الذين حرموا من زيارة بلدهم والمشاركة في تطويره والعمل في اعماره بسبب نزوة غير مبررة اطلاقاً من اقافي الدروب الخلفية ولصوصها: القتلة الاميين،الذين نصبوا انفسهم، بغفلة من الزمن، حكاما للعراق على مدى عقود!

ولد "محمد صالح مكيه" عام ١٩١٤ في بغداد، بمحلة "صابيغ الال"، المحلة البغدادية الاصيلة، التي اعتبرها الشخصية الوطنية والثقافية عبد اللطيف الشواف، في كتابه " شخصيات نافذة " من المحلات القليلة الباقية التي رجح اصل سكانها، بانهم اسلاف "بغداد العباسية"، ذلك لانها مع تخومها ظلت، لقرون عديدة، بمنأى عن هموم وامال وتبجحات سكنة "جديد حسن باشا" - مقر الولاة في بغداد العثمانية، كما انها لم تطلها نوبات الغضب المتعددة التي كان ينزلها الولاة / الحكام باستمرار على تلك المحلات القريبة من مكان سكناهم وعملهم، العاجة بمناخات الدسائس والمؤامرات والمكائد التي لا تنقطع!

انهى "محمد مكيه" تعليمه المعماري في انكلترة، في "ليفربول" مدينة المعماريين العراقيين الرواد، اللذين تأهل اكثريتهم في مدرستها المعمارية وحصلوا منها على شهادات التخرج المهنية، امثال احمد مختار ابراهيم، وحازم نامق، وجعفر علاوي، وعبد الله احسان كامل، ومدحت علي مظلوم وغيرهم؛ كما انهى "مكيه" دراسته العليا (الدكتوراه) من "كينغس كولوج Kings College " في كمبريدج عام ١٩٤٦.

تنطوي السيرة المهنية للمبدع، ايا كان ابداعه، على سلسلة من حلقات متصلة، حلقات تشكلها تنويعات التجريب التي يمارسها المبدع، والمفضية الى نوع من الارساءات الاسلوبية الناضجة، التي يقدورها ان تفتح طرقا غير سالكة، تكون مهمتها تكريس الجديد وغير المألوف في الخطاب الابداعي الثقافي. بمعنى اخر ثمة استمرارية في العمل الابداعي، استمرارية مناسبه هي في الاخير ماهي الا شكل المقاربة الذاتية التي تطبع انتاج المبدع بطابع خاص. من هنا، تبدو لا موضوعية النزعة التحقيبية الصارمة وخطلها في العملية النقدية التي يلجأ اليها كثير من النقاد لرصد منجز هذا المبدع او ذاك؛ ذلك التحقيب الذي يكرس انفصام النتاج الابداعي من مرحلة بعينها عن بقية المراحل الاخرى في سيرة المبدع الثقافي.

على ان بعضاً من انواع النقد المعاصر يلجأ الى توظيف اليات التحقيب من اجل ارساء قيم نقدية، هدفها اضاءة المنجز الابداعي بموضوعية عاليه ومن دون التمترس وراء قطيعة حقبة زمنية وغربتها عن الاخرى، سعياً لادراك مهام وخصوصية تلك الحقب، والكشف عن روابط تأثيراتها الواحدة في الاخرى. وهذا هو ما نسعى الى اسقاطه على محاولتنا في التعاطي مع سيرة "محمد مكيه" المعمارية.

ومرة اخرى، ينبغي التأكيد بان تناول فعل التحقيبات، التي ننشير اليها، مرده الحرص على تركيز الاهتمام في مساحة زمنية محددة بعينها، والاشتغال على انجازاتها، توطئة للالمام بتأثيراتها المستقبلية في صيرورة مبدعها و "بيوغرافيته" المهنية.

يمكن رصد مرحلتين اساسيتين في نتاج "محمد مكيه" المعماري؛ المرحلة الاولى، تبدأ منذ انهماكه في العمل المهني بالعراق، غب وصوله اليه، في نهاية الاربعينات، وحتى بداية الستينات، اي الى ميقات تصميم "جامع الخلفاء" عام ١٩٦٣؛ والتي عندها تبدأ المرحلة الثانية في مسيرة المعمار المهنية؛ اي باختصار شديد، ثمة حقبتان رئيسيتان في سيرورة المعمار: قبل جامع الخلفاء وبعده. بالطبع هناك مراحل اخرى شهدتها مسيرة المصمم، لكن مرجعية تلك المراحل الاسلوبية كانت دائما تستقي حضورها

التكويني من خصوصية تبنيك المرحلتين، اللتان الفتا لحمة خط المسار المهني للمعمار. وقد تبدو طبيعة التصاميم المعمولة في كلتا الحقبتين متباينة، بل ومتضادة شكلاً الواحدة للاخرى، بيد اننا نلمح فيها توق المعمار وسعيه وراء ما ندعوه "بالجديد المحافظ" والحرص على تفخيم هذا المنجز وتعظيمه؛ وهما سمتان طبعتا اسلوب تعاطي المعمار مع الفعل التصميمي، بطابع مميّز.

عمل "مكيه" في حقبته الاولى على تبجيل مفردات التصميم السائد في المشهد البنائي المحلي، والسعي الى الارتقاء بها الى مصاف اللغة الاحترافية المهنية؛ وهو ما عكسته طبيعة تصاميمه ابان تلك الفترة من ولع واضح بالتعاطي مع خصوصية المادة الانشائية التقليدية بالعراق وهي: الاجر- الطابوق. وتبدو هذه المادة حاضرة في نسيج الاعمال التصميمية التي نفذها المعمار في نهاية الاربعينات والخمسينات، كما تبدو وكأنها تكتسي شكلاً جديداً، نابعا بالاساس من اسلوبية الحدث التصميمي الجديد، والمناط بتلك المادة لاظهاره. في عمارة بعض البيوت السكنية كدار "فاضل الجمالي" في الاعظمية و"دارة الاميرات" في المنصور، او في مبنى "المستوصف العام" على ساحة السباع (١٩٤٩) ببغداد وغيرها من المباني، نتلمس حرص المعمار على ايصال عمل مادة الطابوق لمستويات مهنية عالية وجديدة، لم تعتادها الممارسة البنائية المحلية، لكن اشكال مفرداتها التصميمية تظل اسيرة مرجعيتها التقليدية المحافظة.

في بعض المباني التي صممها "محمد مكيه" في تلك الفترة، يمنح المعمار اهمية خاصة الى بعض المفردات التكوينية ليجعل منها، ومن شأن المبالغة في المقياس والقياس، حدثا تصميماً اساسياً؛ ففي فندق "ريجنت بالاس" بشارع الرشيد، في بغداد (١٩٥٤)، وكذلك في تصاميم دور سكنية عديدة، يستثمر المصمم مفردة "السلم" ذي الوظيفة المتواضعة ليجعل منه نقطة جذب تصميمية، بعد ان يسدي عليه هالة من التضخيم والتوسيع الكبيرين.

ويظل مبنى "بلدية الحلة" والمصمم من قبل "محمد مكيه" عام ١٩٥١، من اجمل واهم مباني تلك الحقبة. لا ينطوي الحل التكويني للمبنى على لغة معمارية حداثية، كما ان اسلوب معالجة تنظيم الفضاءات فيه تبدو كلاسيكية، بل ومحافظة نوعا ما: ثمة رواق مكشوف لطارمة امامية يستند سقفها المستوي على مساند آجرية، وهذا الرواق يحمي ويظلل فضاءات الغرف الادارية الواقعة بجنبه، وما عدا بعض التوفيقات في الحلول الانشائية، فان عمارة مجمع المبنى تكاد.. ان تكون عادية،... تكاد؛ بيد انها ليست كذلك!

والسبب يرجع الى "برج" الساعة الضخم والشاهق؛ الذي ينقل مكانة عمارة المبنى العادية..الى مستوى فوق العادي، الى منسوب مميّز واستثنائي مقارنة الى طبيعية البنية المبنية المحيطة.

يرتفع "البرج" ذو المسقط المربع، عالياً فوق كتلة المبنى المتكونة اساساً من طابقين، وتتوج نهايته باربع ساعات كبيرة. وتذكرنا هيئة المبنى غير العادية باهمية المغزى الوظيفي الذي تضطلع به هذه المؤسسة، كونها تمثل نواة الحكم المحلي لاهالي المدينة الفراتية وسكانها المتطلعين، وقتذاك الى مستقبل اقتصادي وثقافي واجتماعي افضل!

ان اهمية عنصر البرج الشكلية تطغي بوضوح على مجموع مفردات التكوين الاخرى، ليس لانه اعلى ارتفاعا من بقية كتل المجمع، ولكن ايضا، بسبب اسلوب المعالجات شبة المصمتة لواجهاته التي اكتسبت جراءها، تلك الواجهات قوة تعبيرية واضحة وكذلك ايضاً جراء شبكة الخطوط الافقية والعمودية المرسومة على تلك الواجهات، فضلا على وجود الساعات الكبيرة الرنانة في قمته. وتتصادى الحلول التصميمية الى وضعها المعمار في مبناه هذا، مع الاساليب التكوينية التي اقترنت بمحاولات المعمار الهولندي المعروف "وليم دودوك (١٨٨٤-١٩٧١) W. Dudok" واشتغاله كثيراً على ثيمات تعبيرية التلاعب الحُر في الكتل الهندسية البسيطة واشكال الانزياحات النشطة، والاتماثلية القوية، والمعالجات المقتضبة للسطوح.

بالنسبة الى مدينة "الحلة"، وقتذاك، لم يكن الحل المعماري لمبنى البلدية وحده يشكل امرا مثيراً، بقدر ماكان ايضاً، حضور العمارة وجلالها في نسيج البيئة المبنية المحيطة، كانا لا يقلان حماسة و اثارة!

صمم "محمد مكيه" مبان عديدة، مختلفة الاغراض والوظائف على امتداد زمن الحقبة الثانية من نشاطه التصميمي، وانطوت لغة العمارة المصممة على اكتشافات هامة عززت من معجمه التكويني واهلته لان يكون واحدا من اشهر المعماريين الاقليميين في عموم منطقة الشرق الاوسط. وتعد بعض تصاميمه في هذه الفترة بمثابة معالم اكيدة على ما عرف "بالتيار الاقليمي الجديد" التيار الذي يطمح ان يكون انجازه المعماري متماهياً مع الذاكرة الجمعية لمفهوم "العمران" في اوساط اقليمية معينة، متكئا على لغة تصميمية مشبعة برموز ومفردات الناتج البنائي لمنطقة محددة بعينها؛ ويمكن لمتتبع انجاز "محمد مكيه" ان يتعرف بسهولة عن مورد المفردات التصميمية ومصدرها، وان يلمح ببساطة مسار الاضافات التكوينية المقننة التي طرأت على "ريبرتواره repertoire" التصميمي في هذه الحقبة، وهي مفردات واضافات ما فتأت تستدعي عناصر المنجز المعماري اياه الذي تَم تحقيقه سابقاً في مشروع تصميم "مسجد الخلفاء" في منطقة سوق الغزل ببغداد عام ١٩٦٣.

فمنذ مبنى "الكلية التكنولوجية" في باب المعظم ببغداد (١٩٦٦) < والذي شغلته كلية التربية لاحقاً>، مرورا بمكتبة ديوان الاوقاف العامة(١٩٦٧) ومبنى مصرف الرافدين في الكوفة (١٩٦٨)؛ ومن ثم مبنى "مسجد الكويت الكبير" في مدينة الكويت (١٩٧٦)، ومسجد الصديق في الدوحة (١٩٧٨)، وكذلك التصميم المعد للجامعة العربية في تونس (١٩٨٣)؛ وعشرات المشاريع الاخرى ذات الاغراض الوظيفية المتنوعة والمنفذة في العراق وفي بلدان الخليج المختلفة في السنين الاخيرة، نحس بان ثمة تفاصيل معمارية معينة او بالاحرى تنويعات على ثيمة تفاصيل معمارية بعينها، متواجدة وحاضرة في نسيج اللغة التكوينية لتلك التصاميم، وليس هناك صعوبة ما في ارجاع تلك التفاصيل الى منبعها الاصلي، الى ذلك المنجز المثير الذي تحقق في محلة "سوق الغزل"!

والسؤال ما برح قائماً:

كيف تسنى للمعمار ان يحقق تلك "الطفرة" التصميمية، وان يظل، في ذات الوقت ولعقود، اميناً لمرجعيتها التكوينية؟

والسؤال، هنا، اذن- سؤالان.

لكننا، ونحن في هذا المقام، لا يسعنا الان، الاجابة عن ذينيك السؤالين، ليس لانهما غير جديرا بالاجابة، ولكن طبيعة المقال، والنزعة الاختصارية له، وطبيعة المناسبة التي نحن بصددها، لا تبيح لنا الاستطراد في الاجابة.

وفي الاحوال كافة، فان ما تم انجازه في مسجد الخلفاء"، يعد حدثاً تصميمياً مهما، عكس ما كان يتوق اليه المعمار سابقاً من ولع كبير وعميق بالتفاصيل، ومن انتباهه الى ما يمكن ان تحتويه تلك التفاصيل من اسرار الالفة المكانية، المنشطة لانتاج ما يشبة "الايقونة" المختزنة في الذاكرة الجمعية وتصوراتها عن "العمارة" و "العمران"! لا يطمح مخطط تصميم "مسجد الخلفاء" الى حل نفعي ومباشر لتجسيد مفردات المنهاج الداعية لتصميم فراغات "مسجد" باشتراطات محددة؛ فالمكان، وشواهد المكان، وموقع المكان، كلها امور غير عادية، لم يكن بمقدور المصمم تجاهلها او التغاضي عنها. فالمسجد المنوي تشييده يقع ضمن منطقة تاريخية مهمة في تاريخ الاسلام والخافة الاسلامية، التي كانت بغداد يوما ما حاضرة لها، ثم ان وجود المأذنة التاريخية، في الموقع، والتي يعود تاريخها الى اواخر القرن الثالث عشر (١٢٧٩) واهميتها الاثارية وارتفاعها الشاهق (يصل ارتفاعها الى حوالي ٣٥ مترا) وهيئتها المميزة واسلوب تزيناتها وطبيعة موادها وتراكيبها الانشائية، فضلاً عن ان الموقع ذاته شغلته يوما ما، مساجد بغدادية فسيحة ومهمة، لم يبق شاهدا منها الا مأذنة تنهض اليوم عالية في الموقع؛ كل ذلك كان حرياً بان يُأخذ في نظر الاعتبارعند اعداد الفكرة التصميمية للمسجد.

ولهذا فان القرار التصميمي لم يكن معنيا كثيرا بايجاد فراغات مناسبة للمصلين، وهي الوظيفة الاساسية لمبنى مسجد، بقد ما كان ينزع ذلك القرار الى حضور تجليات القراءة الحديثة لسجل التاريخ البنائي والعماري لتلك المنطقة؛ والتماهي تصميمياً مع عناصر ورموز مألوفة للذاكرة الجمعية ومعروفة لديها. فالمعمار، هنا يستثمر الحدث التصميمي لاعادة انتاج تلك الموروث الثر والنبيل الذي ما فتأ يثير همة وحماس البناة المحليين، ولهذا فان تنظيم الاحياز التصميمية لمسجد الخلفاء وتشكيل عناصرة المعمارية كانت معنية، في اعتقادنا، الى تكريس حضور الفضاء تكوينيا، الفضاء العاج بالنكهة التاريخية، وان لا تغلب العناصر المستحدثة شاهد الاجيال السابقة، وان لا تحاول ان تطمس منجزها التصميمي البارع؛ وبعبارة اخرى، يستبدل المعمار، المسكون بحضور الغياب، مراميه التصميمية في ابتداع فراغات جديدة، يستبدلها لجهة اقتصار الفعالية التصميمية وجعلها تعمل كخلفية بنائية background لـ"فكرة" متخيلة تكون مشاعة للجميع، في تصور ما يمكن ان يكون عليه "مسجد الخلفاء" جنبا الى جنب شاهده المادي المثير- المأذنة التاريخية العتيدة، ذات "الفورم" الجميل والتناسبات النبيلة.

يبقى هاجس التفصيل سيد التكوين في عمارة "مسجد الخلفاء"؛ التفصيل الذي يطمح لان يكون مكافئاً للمنظومة التزينية التي تكسو سطوح المأذنة المجاورة من جهة، ومن جهة اخرى يسعى التفصيل وراء تكريس هيئات العناصر المعمارية التراثية المألوفة وجعلهامفردات نشطة في صميم المعالجات التكوينية للمسجد، بيد ان المعمار، هنا، لاينساق وراء اغواء وجود العناصر التراثية ليعلن انتماء عمارته الى المكان، ذلك لان التفصيلات المستخدمة، عدا كون اشكالها هي نتاج فعالية تفسيرية، فانها تستثمر طاقات المادة الانشائية الحديثة المعمولة بها تلك الاشكال الى اقصى حد.وتنزح لان تتواءم مع امكاناتها التركيبية. ويبدو ان مزاوجة استخدام منظومة التزيينات القديمة مع الحلول الحديثة هو الذي يمنح "مسجد الخلفاء" تلك الاحساس العالي بنظارة وحداثة القرارات المعمارية ومنطقيتها؛ وفي النتيجة، فنحن ازاء تمرين بصري ممتع، يزيده امتاعا كون العناصر البنائية التقليدية قد تم تأويلها لتتناسب مع مجرى استحقاقات لغة العمارة الحداثية. وهذا الإمتزاج النبيه الذي تحقق في "مسجد الخلفاء" عدّ حدثاً تصميمياً مهماً، وطدّ تداعيات مبادئ وقيم تيار "الاقليمية الجديدة" الناشئ، وابان مقاربتها المميّزة في الخطاب المعماري العربي بصورة واضحة وجليّة.

مرّ على مكتب "محمد مكيه" معماريون ومصممون عديديون، ساهموا كل حسب اجتهاده وعمله في تعزيز المقاربة المعمارية التي اتسم بها نشاط "محمد مكيه" الاستشاري. ان عملهم ومشاركتهم في انجاز تلك المشاريع ساهم، ايضا، في تثبيت نهج العمارة الاقليمية في الخطاب المعماري العربي الحديث؛ وعدم الاشارة اليهم والى جهودهم سيقلل بالتأكيد من موضوعية الاحتفاء بتسعينية المعمار. ان عددهم لكثير! بيد ان ذكر بعضهم مثل جبرائيل خمو والمعمار داود، ومحمود العلي وعلي الموسوي وخالد الراوي ونوف علاوي، سيكون امرا مقبولاً في تأكيد فعل مساهمة الاخرين والاعلاء من شأن روحية العمل الجماعي الذي انتج ما انتج من مشاريع مهمة ومميزة خرجت من "معطف" مكتب "محمد مكيه"!

لا يمكننا، ونحن بصدد الكلام عن سيرة "محمد مكيه" ان نتغاضى عن دوره الفعال والاكيد في تأسيس مدرسة بغداد المعمارية الاولى قسم العمارة في كلية الهندسة بجامعة بغداد، فقد شغل المعمار منصب اول رئيس للقسم غُب تأسيسه عام ١٩٥٩ ولحين خروجه من العراق في نهاية الستينات؛ وحاول مع زملائه المعماريين العراقيين وبالاشتراك مع تدريسيين من اوروبا الشرقية ان يكرسوا الاهتمامات المحلية والاقليمية في المناهج التدريسية للقسم، وان يعكسوا ذلك في استحداث مقررات جديدة تخص العمارة الإسلامية وشواهد البيئة المبنية.

واذكر، شخصياً، عندما عينت في القسم المعماري في بداية السبعينات كان ثمة كلام كثير ودائم من منتسبي القسم وخريجيه عن ما قدمه محمد مكيه لتلك المدرسة من جهد واهتمام ورعاية؛ وقد ارسى "مكيه" تقليدا مثمرا وهادفا بضرورة مشاركة المعماريين العراقيين المؤهلين العاملين في الحقل المهني التدريس في القسم. وساهم كل من رفعة الجادرجي وقحطان المدفعي واحسان بربوتي وفؤاد عثمان بالاضافة الى عبد الله احسان كامل وهشام منير وناصر الاسدي وحازم التك اللذين كانوا ضمن الكادر الدائم، التدريس في القسم، وظل هذا التقليد معمولا به على الرغم من ان القسم تهيأ له نخبة من الاساتذه الاساسيين الذين الفوا في السبعينات ومنتصف الثمانينات كادرا مرموقا من التدريسيين عملت بجهد واناة كبيرين الى تكريس وانماء ارث "محمد مكيه" التعليمي وكان من بينهم بالاضافة الى كاتب هذه السطور، د. عمانوئيل ميخو ود. احسان فتحي ود. بهجت رشاد شاهين ود. ساهر القيسي وباسر عبد المجيد وهيثم خورشيد وجرجيس البناء ود. مثنى البياتي ود. عدنان السامرائي وطالب الطالب وبطرس خمو وشيرين شيرزاد وخالد الراوي وغيرهم من الاساتذة البارعين والمحبين الى مهنتهم، اللذين رفعوا عالياً من مكانة واسم القسم الذي ارساه يوما ما "محمد مكيه" الى مصاف المدارس المعمارية المهمة والمؤثرة في العملية التعليمية لعموم منطقة الشرق الاوسط!

وعندما نظمنا نحن: اساتذة القسم وخريجيه وطلابه عام ١٩٨٤ حفلاً بمناسبة مرور ربع قرن على تأسيس القسم ن شعرنا بمدى الاغتباط والفخر لرؤية نتاج البذرة المباركة، السليمة التي زرعها يوما ما "محمد مكيه"؛ وهي الان بمثابة شجرة وافرة من الطلاب النابهين والخريجين الاكفاء اللذين اثروا البيئة المبنية لوطنهم، والبلدان المجاورة باعمال تصميمية مميّزة؛ قبل ان تمتد ايادي الدكتاتورية البغيضة الى تلك المدرسة المجتهدة لتحيلها الى خراب، كما حالت جميع مؤسسات البلد الاخرى الى خراب وتدمير كاملين!

قد يبدو الاستشهاد بالمفارقة التي تكلمنا عنها في اول مقالنا سبباً اخرا للتذكير بعمق المأساة الانسانية التي اوجدها النظام الدكتاتوري البائد في العراق؛ فالمعمار الذي ظلّ حريصاً ووفياً لانتماء عمارته الى مكانها، المكان الذي نشأ وترعرع وعمل فيه؛... هذا المعمار يستقبل تسعينيته في بلد غريب وبعيد!

فهل تلبي المؤسسات الوطنية في العهد الجديد دعوة المناسبة التي اثرناها، وتحتفي بتسعينية هذا المعمار المهم والمبدع في.. بلده؟

مناشدا، ايضا، اصدقاء وطلاب "محمد مكيه" ان يجعلوا هذه المناسبة فرصة مواتية للتذكير باهمية منجز عمارة "محمد مكيه".. والتخفيف عن غربة المعمار!

محمد مكية والمدرسة المعمارية البغدادية

حسين الهنداوي

تعامل الفنان المعماري العراقي الكبير الدكتور محمد مكية مع بغداد كهم جمالي محض بذاته منذ البدء مانحا اياها موقعا هائلا وحميما فوق العادة في منظوره المعماري.

ففي مقالة له عن "تطور فن العمارة في بغداد" نشرت في ١٩٦٨، يقدم لنا مكية عرضا تاريخيا شاملا لتطور فن العمارة في بغداد، مستخلصا أبرز الخصائص المعمارية التي تميزت بها عمائر هذه المدينة، بالاعتماد على ما سجله المؤرخون البلدانيون حول معالمها العمرانية من معلومات، وما ورد في كتب الأدب والرحلات من نصوص وتحريات بلغات عدة.

وحسب هذا المعماري الرائد، الذي غادرنا قبل سنوات ثمان، لم يكن هناك فن للعمارة الإسلامية، تتجسد فيه كل الخصائص الجديدة، "قد ظهر للوجود، قبل أن تتولى بغداد تكوينه وابداعه".

فالتمدن الإسلامي في هذه البقعة من العالم القديم، أوجد حاضرة تولت مسؤولية تمدن سريع نجم عن نشاط حضاري في كافة الميادين، مما جعل منها حاضرة العالم الإسلامي ودار الخلافة العباسية ومركزاً تجارياً هاماً جمع إليه الناس من كل الأقطار والأمصار، حتى أصبحت كما قيل "الدنيا بادية وبغداد حاضرتها".

إذ أنه يعتبر ان فن العمارة قبل قيام بغداد، "لم تتوفر له الفرص والإمكانات ليهيمن على تكوين منشآتها الجديدة أكثر من أن يحاول تحقيق مسقفات واسعة كانت تجمع بين عناصر الفن الأغريقي والروماني والهلنستي، تلك التي ظهرت معالمها واضحة في الإنجازات المعمارية التي تحققت في بلاد الشام إبان الحكم الأموي. فقبة الصخرة والجامع الأموي – بعد تجريدهما من زخارف التكسية السطحية – هما معالم تاريخية أكثر من كونهما معالم لمنجزات في فن العمارة الإسلامية الخالصة".

وهكذا، فإذا اتفقت آراء الباحثين في علم الآثار الإسلامية وتاريخ فنونها، حول مصادر هذه الفنون وعناصرها الهلنستية، فإن "من الصعب أن توسم منجزات بغداد، وما أعقبها من تطور العمارة الإسلامية في المنطقة، بالتبعية الهلنستية، أو توصل بمصادر الاشتقاق من الأبنية اليونانية والرومانية".

لكن دراسة التراث المعماري البغدادي ظل متأخرة وناقصة جدا في العراق لحد الآن شأنها شأن دراسة غيرها من مواطن التراث المعماري العراقي القديم والاسلامي وحتى العثماني والحديث، فجميع رموز هذا التراث لا زالت اقرب مجرد ركام من المواقع لا قيمة له سوى القيمة التاريخية بينما ينبغي تحويله الى رصيد حضاري وجمالي وأن نبعث فيه الحيوية الإبداعية، الامر الذي يتطلب منا أن نتحلى من الآن وصاعدا بالجرأة على التعمق الدراسي والتخطيط المنهجي لمعالجة هذا التقصير لا سيما في هذه الفترة الحاسمة من تاريخنا التي تجد انطلاقتنا العمرانية فيها محاطة بشتى تيارات التطور الجاذبة بعيدا عن التراث والخصوصية العمرانية في مختلف الميادين.

وبرغم ان لبغداد وقعها الساحر في أذهان الزوار الأجانب وقلوبهم ولهم أحلامهم الجميلة حيث أنهم غالبا ما يربطون ذكرها المجرد بأجواء قصص ألف ليلة وليلة و المشاهد الخلابة. الا هذا الرصيد الثقافي والحضاري عرضة للضياع او التبذير ما لم نهيئ لهؤلاء الزوار ما في واقع بغداد التاريخي من جماليات وتراث يكفل لهم على الاقل اكتشاف بعض ما في تلك الأحلام من صور دون خيبة أو احباط.

والحال، ان الظاهرة التي تصدم معظم زوار بغداد والقاصدين اليها من علماء وسياح ومشاركين في مؤتمرات وندوات وحلقات دراسية اجتماعية وعلمية وأدبية، هي "افتقار بغداد إلى كيان مديني يتلاءم بمقاييسه وشخصيته وملامحه مع شهرة اسم هذه المدينة وتاريخها العريق ومكانتها كحاضرة تاريخية رائعة من حواضر العالم لعبت دوراً حضارياً مشهوداً".

فالفوضى المعمارية، وفوضى التخطيط، تطبعان كل مجالات الحياة فيها. الا انهما لا تقتصران على بغداد وحدها بل تشملان أكثر عواصم وحواضر العالم العربي في الواقع. وهي ظواهر متأتية في رأي مكية "من جهل ضارب في مفهوم الكيان التخطيطي وعدم اكتراث الحضاريين أنفسهم وعملية التخطيط للمدينة لا تنحصر بمفهوم ضيق يقف عند فتح الشوارع وانشاء الأبنية وتهيئة الساحات والحدائق، بل إنها عملية حضارية معقدة وشاملة تستوجب اظهار خصائص ومقومات المدينة على أسس علمية وفنية في ضوء إدراك وحسّ لمستقبل يتصل بزمان ومكان المجتمع الحضاري.

لكن ما يحصل في بغداد والمدن العربية والإسلامية الأخرى اليوم من فوضى وتوسعات عشوائية وهي في غمرة تطورها ونموها السريع يؤديان حتماً الى مسخ لتاريخها العمراني والحضاري وتدمير لتواصله مستقبلا، بينما الأولى بالمعماريين ان يكونوا رسل ثقافة مجتمعاتهم وتاريخ حواضرها لدى المستقبل.

وينظر مكية بقلق ايضا الى التضخم السكاني الذي تعانيه بغداد والعواصم العربية والاسلامية الاخرى، فهو يشير مرارا الى ان عدد المحرومين من المسكن في العالم الاسلامي بلغ نحو ٨٠٠ مليون شخص عام ١٩٨٧ يعيش معظمهم من دون مأوى، وهو عدد مرشح للارتفاع بلا ريب. فمدينة مثل بغداد كان عدد سكانها في زمان طفولتنا ٣٦٠ ألفاً اصبح تعدادهم سبعة ملايين مع نهاية القرن العشرين، وعدد سكان القاهرة الآن ١٧ مليوناً وستكون أكبر من العالم سكاناً مع القرن القادم. حيال هذه المشكلة المتفاقمة ينبغي ايجاد حلول كبيرة تنطلق من تراث العمارة الإسلامية ذاتها انما مع اعتماد المواد الحديثة في البناء. فتلك الحلول ليست مجرد بناء بيوت، بل تخطيط مدن تقدم السكن والخدمات للايين السكان.

ومحمد مكية ينظر باحترام الى التجربة المهمة التي قدمها المهندس المعماري المصري حسن فتحي (١٩٠٠-١٩٨٩) عبر مشروع "عمارة الفقراء" الذي اعتقد بامكانية اعتماده لحل مشكلة بناء بيوت لأغلبية السكان لا سيما الفقراء عبر استخدام تقنيات التراث المحلي للعمارة الشعبية، اذ يعتبره مكية "مثالاً رائعاً" على امكانية استخدام مواد البناء المحلية ومساهمة السكان في البناء.

أما سبب اخفاق حسن فتحي في مشروعه ذاك رغم امتلاكه فرصة تنفيذ ودعم دولي لم يتوفرا لغيره من كبار المعماريين العرب، فذلك لأنه "لم يستخدم العلم المعاصر في احياء التراث بل اعتمد على الايدي المحلية في تحضير الطين والآجر وهذا أمر لم يعد عملياً في الوقت الحاضر سواء من الناحية الاقتصادية أو الخبرة العلمية، كما أن الطين ذاته لم يعد متوفراً الآن كما في الماضي.

كما فرط فتحي بتقنيات معروفة لدينا كبناء الطوابق المتعددة على اساس انها لم تكن موجودة في التراث المعماري المصري القديم، ورفض كذلك معطيات التمدن التي كان يمكن دمجها بتقنيات التراث لتقديم بناء جديد يخدم وظائف البناء اللازم اليوم".

وبكلمة يرى مكية ان اخفاق مشروع "عمارة الفقراء" يعود اساسا لانه لم يعالج المشكلة عبر الجمع بين التراث المعماري المحلي وبين المواد الحديثة في البناء والتقنيات العالمية الجديدة في تخطيط المدن، وهذا المنهج هو ما نفذه مكية في تصميمه لجامعة الكوفة حيث قام كما يخبرنا بتوزيع الفضاءات والمسقفات وفق نظام الساحة الوسطية وتكرارها كوحدات جامعة.

وهذا الاسلوب التخطيطي، بالإضافة إلى كونه يستخدم المزايا المحلية للعمارة العراقية قبل الإسلام وبعده، فانه اعتمد تقنيات العمارة الحديثة محققا عدة اهداف دفعة واحدة في مقدمتها ضمان توفر الخصائص الأكاديمية لدور العلم بأفضل شكل، وتلبية متطلبات حضور عنصر المناخ والطبيعة وعموم البيئة الجغرافية. وعلى العكس من منهج حسن فتحي الذي اهمل مواد البناء الحديثة، عمل منهج مكية على الاستفادة من طابعها الخاص وقدراتها في رفع قوام التصميم وتكوينه وشكله العام، ولم يتجاهل قدرات المواد الكونكريتية ليس فقط في ان تستخدم كوساطة لتقليد المساند الجدارية القديمة دون الحاجة الى الضخامة والمتانة الحجمية التي كانت تأتي دائما على حساب جماليات الأروقة والمساند الاجرية المخصصة لتشييد العقود.

ولقد اسفر هذا المنظور عن توفير شروط اسلوب جديد لاستعمال المواد الحديثة في العمارة البغدادية والاسلامية عامة، كما ضمن مرونة ومميزات أصيلة وسهولة في الاستعمال واقتصاد في التكاليف لا يمكن تحقيقه بالاعتماد على أي بديل محلي للمواد المستحدثة الاستعمال هنا.

محمد مكية.. معماراً مميزاً وأباً مربياً

رفعة الجادرجي

عند بحث دور د. محمد مكية في العمارة سنكون دقيقين أكثر إذا ما بحثنا ما تتصف به سيكولوجية فئة معينة في المجتمع العراقي، كانت في دور النمو والظهور، وهي ظهور الطبقة الوسطى التي كانت تنمو لترتقي وتكتسب الصفة البرجوازية، والتي أخمدت، بسبب الانقلابات العسكرية وتخلف الريف في العراق. كما علينا أن نشير أيضا، إلى عامل الصدفة، حيث أرسل مجموعة من الشباب لدراسة العمارة في إنكلترا، فرجع هؤلاء ليؤلفوا الجيل الأول من المعماريين في العراق.

إن عوامل الصدفة التي رافقت ظهور معماريين متميزين، حسبما اعتقد هي:

١. ارسلت البعثة إلى جامعة ليفربول، حيث كان آنذاك الاستاذ رايلي رئيس قسم العمارة.

٢. و الصدفة الثانية التي منحت د.مكية مقاماً متفرداً في مجال التربية المعمارية هي تعيينه أول رئيس لقسم العمارة.

٣. كانت الخلفية التربوية، البيئية والعائلية، هي التي منحت هؤلاء قدرة استيعاب متطلبات دراسة العمارة، أقول هذا، لأن دراسة العمارة تتطلب قدرات تقّبل الفنون عامة، ولذا عادوا إلى العراق يتمتعون بتعليم معماري متميز، وليس كمهندسين يمارسون العمارة، كما هي الحال في البعض من البلدان العربية.

تألفت هذه الفئة من: أحمد مختار، مدحت علي مظلوم، جعفر علاوي وإضافة إلى هؤلاء، هناك الذين درسوا العمارة ورجعوا متخصصين بالثقافة المعمارية وهم: سامي قيردار خريج البوزار، نزار علي جودت خريج جامعة هارفرد، قحطان عوني خريج جامعة كاليفورنيا، قحطان المدفعي خريج جامعة كاردف. تتصف هاتان المجموعتان بأن افرادهما: أسسوا القاعدة الثقافية والتربوية والمهنية لظهور المعمار في العراق. لقد اعتبروا العمارة فناً وليس هندسة. وذلك بسبب كونهم مطلعين على الفنون كالرسم والموسيقى والنحت وغيرها من الفنون. كما كانوا أصدقاء للفنانين العراقيين، وقد عملوا كثيراً على تشجيع تطور الفن الحديث في العراق. كان هذا موقفاً لم يمارس من قبل إلا في ما ندر بين المعماريين في البلدان العربية الأخرى، كسورية ومصر ولحد ما لبنان. و كان من حسن الصدف أن تعيّن محمد مكية أول رئيس قسم العمارة في جامعة بغداد، فعمل على تأسيس القاعدة التربوية لظهور المعمار العراقي.

وبحكم هذه العلاقة التربوية، أصبحت شخصية محمد مكية شخصية تربوية أكثر من أي معمار آخر. فهو لا يسمح بمرور مناسبة من غير أن يشير إلى أهمية تربية جيل جديد ليكتسب صفة ومؤهلات المعمار. وإضافة إلى هذا الدور المهم الذي اتصف به، كان مطلعاً على تاريخ الفنون والعمارة. فعمل ناشطاً في مختلف المناسبات. وأصبح علماً كراعي للتراث العراقي. وكان له دور فاعل متميز. تحية للدكتور محمد مكية بهذه المناسبة، بكونه معماراً مميزاً وأباً تربوياً، حيث ركز على الحفاظ على التراث العراقي سواء في مجال العمارة أم في الحرف عامة وفي مختلف المجالات.

من ارشيف الراحل رفعة الجادرجي

العمارة... النص المرئي: رؤى في الشكل والمعنى والوظيفة

جاسم عاصي

يعرّف الفنان المعماري الدكتور محمد مكية فن العمارة كونه وليد الخصوصية الروحية والظروف البيئية، التي تميّز طبيعة ما. وهو من جهة أخرى معبّر عن فكر وشعور يخصان الحياة الروحية، أي الفكرية والدينية وليس فقط الجوانب المادية (كتاب حسين الهنداوي الموسوم "محمد مكية والعمران المعاصر") الصادر عن الدار العربية للعلوم ناشرون ٢٠١٣) وبهذا نرى أن العمارة كبعد جمالي ذات تشعب في المعاني التي تطرحها، لا باعتبارات كونها مكاناً وملاذاً لاستقرار الإنسان، بقدر ما توحي في كونها حاملة للبنى الجمالية. فالخصوصية الروحية تعني علاقة الذات بالمادة والشكل ـ العمارة ـ كونها تستجيب للذات وتُنتج عنها وإليها. كما أن بناءها الفكرية تعني علاقتها بما تنتجه الشعوب من ملحقات مكمّلة للحياة ناتجة عن تصورات موضوعية.

وكل هذا يتبلور في الملائمة والتوافق الروحي والحسي الوجداني للإنسان. ومن هذا تزداد الصور التي تشتق من أجل تأسيس العمارة. ولعل وظيفتها على صدر مثل هذه الصور. التصورات، المرتبطة بالفكر الإنساني. من هذا كان محمد مكية، ممن سعوا الى محاكاة التراث أو تكييفه شكليا، وبث حياة جديدة فيه، وإعادة تشكيله وظيفيا وجماليا. وهذا ما عناه بالبعد الروحي في تشكيل العمارة، فالعمارة بهذا مكان، وأمر الاهتمام بها وفق هذه الاعتبارات، يعني وكما ذكر المعماري مرارا من أن هذا الاهتمام متأتي من حماية ذاكرة المكان والدعوة إلى الحفاظ على (سومرية الوطن)، معتبرا من الخطأ الكبير التضحية بالنكهة التراثية العريقة لبعض المدن العراقية، كإزالة البيوت البغدادية القديمة، من أجل مشاريع قد تؤدي إلى طمس الذاكرة الحضارية العراقية. واندثارها الكامل، لأنها بالنتيجة لا تجد لها مجالا في ذاكرة الأجيال القادمة. وهذا التصوّر الحريص على المكان وخصوصياته، يعني في ما يعنيه العمل على استلهام التراث العمراني الخاص بالشرق الإسلامي، لاستلهامه تقنيا والتشبّع بقيّمه الروحية والجمالية.

وعلى سبيل المثال أهمية توظيف الخط الكوفي في البنايات العامة واستثماره معماريا وابتكار التصاميم الحروفية المتعددة والتعامل مع الإيقاع اللوني المجرد بحركاته التناسبية المختلفة، أي أن المعماري في هذا التوظيف معني بالإنسان، أي التثبت من القيَم والأفكار والحياة الروحية والعلاقات الاجتماعية وما يشكّل مكوّنات الوجود الخاص بالبشر، ثم المكان أي مسرح الحركة وتفاعل هذه المكوّنات والزمان، أي الأخذ بنظر الاعتبار الحُقب الخاصة وما يطرأ عليها من تجدد وتبدل متمخضين من تغيرات المكان. وبهذا تكون العمارة حاملة لخصائصها العامة والخاصة. فهي من جهة متأثر بالتقنية، ومن جهة أخرى محافظة على صورته المتطورة. فالمعماري لا يعمل بمعزل عن كل التطورات التي تطرأ على فن العمارة في العالم، لكنه يعمل في حدود كون عامل التطور في الجانب الآخر، يعني محاول كشف خفايا العمارة المحلية. التراثية. والتثبّت من أسرارها وخصائصها الجمالية والاجتماعية. بمعنى النظر إليها على أنها بنية فكرية ترتبط مباشرة بالعقل المنتج لها، إذا ما نظرنا إلى الدول الأوروبية، وكيفية تطور العمارة في مجتمعاتها، فقد جاء ذلك من استلهام كل التراث القديم لديهم، وتكييفه وفق متطلبات العصر. لأن العمارة جزء من حضارة الشعوب، فهي استلهام لقيمها الروحية والمادية. فالحضارة في رأي مكية نمط روحي وحياة شاملة على أصعدة التفكير والتقييم الذوقي والحاجات والهموم الكبرى، فقد قاد الاحتكاك والتقارب بين مختلف أجزاء الإنسانية، العديد من المفكرين إلى تحقيق الوحدة الحضارية الفعلية، دون أن تفقد إحداها خصوصيتها.

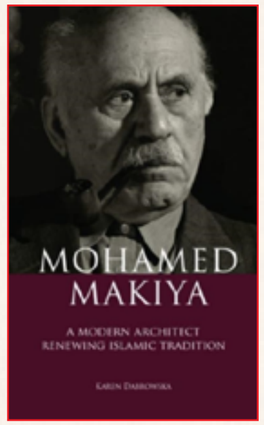

فالتجاوز على حضارة ما يُعد محاولة لفرض نمط خاص لا تهمه الخصوصية الذاتية. ولعل الكاتب التشكيكي ميال كندورا على صواب حين يرى أن التراث الثقافي لشعب ما؛ هو ذاكرة هذا الشعب. وبهذا فإن محاولة تفريغ أمة من تراثها الثقافي، هو تفريغها من أصالتها في رأي مكية. وبالتالي التعدي على بنيتها الفكرية والجمالية من خلال تشويه مكانها، أي التجاوز على بنية عمارتها، كما يحدث الآن في محو ذاكرة المكان وإلغائه وتغليف البنيات بألوان ورقائق صارخة، لا تمت إلى البنية المحلية والتراثية بصلة، وبهذا تم إلغاء الذاكرة. وفي هذا يؤكد مكية ضرورة الاهتمام في الأحياء الشعبية، خاصة البغدادية منها بقوله: إن التراث الشعبي والأحياء الشعبية البغدادية، المتشابكة بأزقتها وما تمتاز به، فهي تحملنا على ضرورة رعاية بعض المعالم كمجموعة وسط المدينة، فهي جزء من جمال المدينة الجديدة. وهذا مرتبط مباشرة بإحساس الإنسان ببيئته.

ولعل المكان . البيت والمؤسسة المتمثلة في العمارة. تعني لديه قيَما روحية تنطوي على وظائف اجتماعية، وإن لم يدرك الإنسان هذا مباشرة، لكن تكيّفه معها يعني قبوله سيكولوجيا بما يعيشه، وما تغيير معالم المكان سوى إحداث اضطراب في البنية العامة له. فالفنان المعماري محمد مكية، كان قد استلهم في أعماله المعمارية الروح الإسلامية، ومنها روح التوحيد، أي خلق ظواهر وخصائص معمارية تدعو إلى الوحدة، بمعنى تستنهض روح الألفة مع المكان، وبالتالي يسري ذلك إلى العلاقات الإنسانية. ولعل مكية بهذا الجهد استلهم الفكرة الفلسفية التي تقوم عليها العمارة لأنه يعتبرها . أي العمارة . أي عمارة ابتداء من البيت والمؤسسة والمسجد وما يليها عبارة عن بنيات فكرية، وبهذا فهي بحاجة إلى بنى فلسفية، لأنها تحاول تشييد ما يؤسس لعلاقات إنسانية في المجتمع. فالمكان خالق للقيم والاعتبارات الأخلاقية، ومشيّد للقيَم الجمالية، لأنه مرتبط أيضا بالرؤى المترتبة عن هذه التصورات. ولعل الخوف من الغزو الفكري المتجسّد في ترحيل العمارة وإحلالها بديلا للعمارة العربية الإسلامية؛ يرى مكية أن هذا لا يعني انقطاعنا عن مجمل التطورات في العالم، لكن شريطة أن نُدرك أهمية المحلي، لأنه نابع من حاجاتنا وتركيبتنا النفسية، وبالتالي بتاريخنا وبنيتنا الاجتماعية.

وفي هذا الخصوص علينا ونحن نتداول ما توصل إليه الغرب في العمارة أن نطور ثقافتنا الخاصة وننظر نظرة نقدية لكل مكوّنا الثقافي. ويؤكد أيضا على مفهوم ثقافتنا الحقيقية، وكأنه يستظهر الأخرى الدخيلة. في هذا لا خوف على انفتاحنا على الثقافات الأخرى، والاستفادة من معارفها ومعطياتها، فيما تتحلى بالعقل الثقافي النقدي. وهذا يعني بطبيعة الحال تأصيل عمارتنا وتأثيث مكاننا بما توحي به قيَمنا الروحية والمادية.

في ذكرى رحيل شيخ المعماريين العراقيين محمد مكية

معتز عناد غزوان

لم يخطر ببال الدكتور محمد مكية أن يعود إلى بلده العراق الحبيب وعاصمة الإبداع والحضارة بغداد يوماً ما، بل كان حلماً يراوده بين الحين والآخر، حتى تحقق بالفعل في ٢٧ نيسان عام ٢٠٠٥ وعلى قاعة قسم الهندسة المعمارية في كلية الهندسة بجامعة بغداد، وكنا قد علمنا بطريقة الصدفة أن الدكتور مكية في بغداد، فأسرعنا يحدونا الشغف والإعجاب والاشتياق إلى لقاء هذا العالم الكبير وشيخ العمارة العراقية، وتم اللقاء بالفعل.

فقد شاءت الأقدار أن يبتعد العديد من علماء ومثقفي العراق بعيداً عن ارض الوطن ليمارسوا حريتهم وابتكاراتهم الرائدة كل في ميدان عمله، بعد حصار المثقف والعالم والأديب والمثقف الحر، هكذا غادرنا الأحبة والطيبون، ولم نكن نتوقع يوماً أن نلتقي احد هؤلاء البارعين ومنهم الأستاذ الدكتور محمد مكية المعماري الأول في العراق، بل ومؤسس القسم المعماري في كلية الهندسة بجامعة بغداد عام ١٩٥٩م. نعم إنها لفرصة ذهبية يتشرف العراقيون بلقاء هذا العلم الكبير من إعلامنا المبدعين والذين ظلت بصمات عملهم الإبداعي شاخصة إلى يومنا هذا.

تحدث العديد من المفكرين عن الدكتور محمد مكية ودوره الكبير في فن المعمار والتراث، إذ وصفه محمد أركون (أستاذ تاريخ الفكر الإسلامي في جامعة السوربون بباريس) ((ان محمد مكية قد نفخ حياة جديدة في العمارة الإسلامية بدمج تراثها الغني بأفضل ما في الثقافة والتكنولوجية الحديثة))، وقال شارل كوريا المهندس والمخطط المعماري ((أن محمد مكية مهندس معماري ذا أهمية عظيمة في العالم الإسلامي وعمله يثير منافذ ذات اهتمام حيوي للمحترفين))، أما السير هيو كاسون الرئيس السابق لأكاديمية الفنون الملكية في إنكلترا ((أن أعمال محمد مكية تستحق أن تثير اهتمام أوسع في العالم الإسلامي)).

ويمكن اعتبار مكية من رواد عملية الإحياء المعاصرة للعمارة الإسلامية، وهو ذو منحى وظيفي وبنفس الوقت عضوي اذ يعتبر إن لكل مشكلة عمرانية أو عمارية حلاً وكذلك تأثره بالحداثيين في عمارة القرن العشرين، وهو في سجيته رومانسي باحث عن الجمال، وواقعي ومتواضع ومخلص لفنه وعمله.

يقول المعمار والباحث الدكتور خالد السلطاني في معرض حديثه عن تجربة مكية ((يمكن رصد مرحلتين اساسيتين في نتاج محمد مكية المعماري، المرحلة الاولى تبدأ منذ انهماكه في العمل المهني في العراق في نهاية الاربعينيات وحتى بداية الستينيات من القرن الماضي، أي الى ميقات تصميم جامع الخلفاء عام ١٩٦٣م، والتي عندها تبدأ المرحلة الثانية في مسيرته المهنية، أي باختصار شديد ثمة حقبتان رئيستان في سيرورة المعمار قبل جامع الخلفاء وبعده، وبالطبع هناك مراحل اخرى شهدتها مسيرة المصمم، لكن مرجعية تلك المراحل الاسلوبية كانت دائما تستقي حضورها التكويني من خصوصية هاتين المرحلتين)). اما الباحث والفيلسوف الدكتور حسين الهنداوي فقد حاور مكية في فصول ومحطات معرفية عدة، منها بغداد وتراثها العمراني المتميز، اذ يبين لنا وجهة نظر مكية في عمارة المدن التراثية الحضارية اذ يقول ((ان ما يحصل في بغداد والمدن العربية والاسلامية الاخرى اليوم من فوضى وتوسعات عشوائية وهي في غمرة تطورها ونموها السريع يؤديان حتما الى مسخ لتاريخها العمراني والحضاري وتدمير لتواصله مستقبلاً، بينما الأولى بالمعماريين ان يكونوا رسل ثقافة مجتمعاتهم وتاريخ حواضرها لدى المستقبل)).

ويشير المعمار الدكتور علي ثويني في حديثه عن الدكتور محمد مكية ((يعتبر مكية بجدارة أحد الرواد القلائل في العالم الإسلامي، الذين شقوا طريقهم بثبات وانتهج لنفسه خطاً في العمارة التي تأخذ من التراث منهلها وتشرئب إلى الحداثة والمعاصرة. وقد اهتم بالجانب المديني للمعلم المعماري، ولاسيما بثابت الجغرافية، أو المكان وما لموقعه والعوامل المناخية والبيئية من تأثير، وكذلك الحال إلى الزمان الذي يسري إلى الجوانب لاجتماعية المرتبطة بصلب التراث الإسلامي. كما يعد الدكتور محمد مكية من أوائل المعماريين الذين عرفت أعمالهم ليس على مستوى العراق فحسب بل تعدى ذلك ليشمل المعمار العربي ولاسيما عمارة الجوامع كالجامع الكبير في الكويت وجامع السلطان قابوس في سلطنة عمان إلى عمارة البوابات الضخمة كما في تصميمه لبوابة مدينة عيسى في دولة البحرين)).

وإذ يطل علينا شيخ المعماريين الدكتور محمد مكية متكئاً على عصاه بعد كفاح مع الغربة دام لعقود مضت، انه الفذ الرائع الذي اطل بعقده التسعين شاباً متألقاً بثوب الشباب والحيوية والابتسامة الرقيقة والتواضع الجم إنها فعلاً أخلاق العلماء.

قدمه رئيس القسم المعماري آنذاك وتحدث عن دور الدكتور مكية في تأسيس القسم فضلاً عن الإطراء الجميل لعميد كلية الهندسة الذي أثنى هو الآخر على دور الدكتور مكية في تأسيسه لفن المعمار وهندسته. بعدها تحدث الأستاذ الدكتور محمد مكية عن تاريخ هذا القسم (القسم المعماري) وجهوده الفردية في تأسيسه لأول مرة في العراق، كان ذلك عام ١٩٥٩م، ودعا مكية إلى الإلمام الكامل بالتراث ولاسيما التراث المعماري البغدادي، وتكلم عن تجربته في تصميم جامع الخلفاء ببغداد، فضلاً عن توكيده التراث المعماري القديم والإسلامي للعراق، وتحدث الدكتور مكية عن علاقته الحميدة بالفنانين التشكيليين كفرج عبو ومحمد غني حكمت وفائق حسن وجواد سليم الذي تعرف عليه عام ١٩٣٦م في باريس، كما كانت تربط الدكتور مكية علاقة حميمة مع جواد سليم وزوجته لورنا سليم. وتقديراً من الدكتور مكية فقد قرر أن يمنح الطلبة الأوائل في الهندسة المعمارية جائزة باسم ((جائزة الأستاذ الدكتور محمد مكية)) لاعتزازه وتشجيعه لبناء وطنه الحبيب.

تحدث الدكتور محمد مكية عن نهر دجلة وما أدهشه عندما شاهد النهر بعد الغربة فقال ((الآن أحس انه أصبح بعيدا عني... مثلا الكاورية والترتيب والنهر، حبذا للنهر وجمالية النهر وكثافة النهر لا يجوز أن يكون الشارع والبناء موازٍ للنهر وهذا كل شيء، أنا الشوارع بالنسبة لي، المدينة القديمة يجب أن احتضنها وتحتضنني و واخرج منها شرايين خضراء وتمتد إلى عدة مدن، تمتد الامتداد الطبيعي، لكن هنا نرى الكارثة....)) .

وهنا يتساءل مكية كيف يكون التعامل مع دجلة؟ لقد قتلوا دجلة! فالشوارع موازية له بدل أن تكون عمودية...هذه دجلة... دجلة الخير... تغنى بها الشعر والأغنية ولكن الواقع شيء آخر... أنتم بغداديون.. أنتم المدرسة البغدادية.. المفروض أن تجعلوا بغداد (حالة دراسية)، المفروض أن تجتمعوا أنتم و أساتذتكم وتدرسون قطاعات بغداد، خذوا باب المعظم، خذوا الباب الشرقي، خذوا مدينة الصدر... كيف نعالجها..؟ كيف نعالج شرايين بغداد..؟ كيف نفهم الشرايين الخضراء..؟ كيف نتعامل مع المدينة، كجسم كامل، كيف نتعامل مع دجلة، والتفكيك من أجل إعادة البناء، والتكنولوجيا الجديدة ومعطياتها، انتهى العمود والجسر الان الغيمة هي السقف. هذه المسائل التي تكاد تكون بديهية، ولكن بها فلسفة... من نحن...؟، فلسفتي في العمارة هو المقياس الإنساني (human scale)، ما هو المقياس الإنساني؟ الإنسان،، المكان،، الزمان الإنسان: يعني القيم الاجتماعية... القيم الأعتبارية.. الخصوصية،،، المكان: المسرح المكاني للحياة و الزمان: الحضور في الذاكرة،،، هذا الثلاثي يكون شيء واحد هو المقياس الإنساني.

وفي ختام اللقاء تجول الدكتور محمد مكية في أروقة القسم وكنا نسير خلفه بكل اعتزاز وفخر وكنت أحاول جاهداً الوصول إليه والتحدث معه، حتى استطعت بالفعل وعندما علم أنني ابن صديق قديم له واحد أعضاء جمعية الكوفة اندهش ومن حبه وشوقه لأيام العلم والثقافة والحب الأصيل احتضنته واحتضنني بكل حب وعيون دامعة، وسلمته كتبا للذكرى وقال لي انه عائد إلى بريطانيا ويريد أن أرسل له أي توثيق لزيارته التاريخية لبغداد، رحم الله شيخ المعماريين العراقيين الدكتور محمد مكية في ذكرى رحيله الخالدة، اذ رحل عن عمر يناهز القرن في العاصمة البريطانية لندن يوم التاسع عشر من تموز عام ٢٠١٥م.

محمد مكية من عمالقة العمارة الاسلامية في الوطن العربي

د. كاظم شمهود

محمد مكية يعتبر احد زعماء الفن المعماري الاسلامي في الوطن العربي قاطبة. ولد في بغداد عام ١٩١٤ واكمل دراسته الاولية فيها ثم سافر الى بريطانيا ودرس في جامعة ليفربول وحصل على شهادة البكلوريس عام ١٩٤١ ثم شهادة دبلوم في التصميم المدني من نفس الجامعة. ثم حصل على شهادة الدكوراة عام ١٩٤٦ من جامعة كمبريدج في بريطانيا. وكان عنوان اطروحته – تاثيرات المناخ في تطور العمارة في منطقة البحر المتوسط – وبعد انتهاء دراسته عاد الى العراق. و اسس اول قسم للهندسة المعمارية في العراق في جامعة بغداد واصبح عميدا للكلية منذ عام ١٩٥٩ حتى عام ١٩٦٨.. وقد اتجه مكية الى الاستفادة من التراث فتضمنت تصاميمه الزخرفة الاسلامية والخط العربي في محاولة منه لدمج العناصر العربية المعمارية التراثية مع الحداثة. وقد صمم كثير من المباني في عدد كبير من الدول العربية والاسلامية وحصل على جوائز عالمية من هيئات متخصصة في اعمال الهندسة المعمارية. ٢١٧٢ جامع الخلفاء ببغداد.

و بعد عودته الى بغداد اسس شركة – شركاء مكية الاستشارية المعمارية والتخطيط – وافتتح لاحقا مكاتب فرعية في البحرين ومسقط ولندن والكويت وابوظبي ودبي والدوحة وغيرها. وكانت اول اعماله المهمة هي جامع الخلفاء عام ١٩٦٠ في بغداد. حيث طور تصميمه مستوحاة من المسجد العباسي الذي يعود الى القرن التاسع والذي كان سابقا قائما في نفس المكان. ونال مكية شهرة في الخليج وقدمت له عروضا كثيرة لتصميم صروح معمارية سواء كانت مساجد او قصور للامراء او عمارات حكومية. وقد اهتم مكية بالقضايا المعمارية التي لها علاقة بالتراث والبيئة المحلية والفلكلور والحرف اليدوية. ونتيجة لاهتمامه بالتراث كان يطلق عليه عالميا اسم – المهندس المعماري الاسلامي – وقد جمع مكية مئات الصور عن الطراز الاسلامي ونشرت في كتاب – العمارة العربية الماضي والحاضر – عام ١٩٨٣.

كان مكية عضو شرف في الجامعة البريطانية وعضو في تخطيط انكلترا وعضو مؤسس في مجمع بلدوس المعماري في اثينا وعضو تحكيمي في لجان دولية معمارية عديدة وعضو في بعثة الخبراء بجنوب شرق اسيا وحاز على جائزة اليونسكو..

و كتب عنه المفكر الراحل صموئيل استاذ تاريخ الفكر الاسلامي (ان محمد مكية نفخ حياة جديدة في العمارة الاسلامية بدمج تراثها الغني بافضل ما في الثقافة التكنولوجية الحديثة) وقال عنه السير هيو كاسيون الرئيس السابق لاكاديمية الفنون الملكية في انكلترا (ان اعمال محمد مكية تستحق ان تثير اهتمام اوسع في العالم الاسلامي والعربي).

في عام ١٩٨٦ اسس مكية مركزاً ثقافيا في لندن اطلق عليه اسم كالري الكوفة. وذلك لان مدينة الكوفة كانت مركزا حضاريا ومدنيا وكانت عاصمة الدولة الاسلامية في زمن الامام علي –ع– ولهذا كان مكية قد اراد التعريف بدورها التاريخي الحضاري في العراق حيث قورنت في ذلك الوقت بمدن اوربية مثل روما واثينا. ويذكر انه لما جاء البعثيون للحكم صدر قرار باعتقال مجموعة من المعارضين منهم مكية وكان يوم ذاك مكية يعمل في البحرين فقرر ان ينتقل مع زوجته الى لندن. وجاء تاسيس مركز الكوفة الثقافي والمعماري والفني بمثابة تحدي للبعثيين واجرامهم واصبح هذا المركز تقام فيه النشاطات الثقافية والفنية والندوات المختلفة وحلقات النقاش المفتوحة خاصة المعارضة السياسية للنظام في ذلك الوقت.

واصدر مكية كتابا اسمه – خواطر السنين – كلف به الكاتب المعروف رشيد خيون حيث يتحدث عن حياته وانجازاته منذ الطفولة الى الكهولة ومنذ العهد الملكي وعصر الانقلابات الى اقامته في لندن. ويصف مكية في هذا الكتاب الاحياء البغدادية وصفا بعين مهندس ذاقب النظر.

وكتب محمد مكية في مذكراته (ان النكهة الجمالية والاصالة المتميزة التي وصلت اليها العمارة الاسلامية، ولا تكاد العمارة الغربية تعرف عنها شيئا.. لم اتردد في تطعيم عمران ليفربول بها (اي بالعمارة الاسلامية) وان كان بشكل خفيف. كما اغمرتني بمحاكات بعض معطيات عمراننا الشعبي. حيث كنت اذهب اثناء الدراسة الى الريف الانكليزي لاعداد تدريباتي المعمارية مفضلا بدافع من روحيتي العربية الاسلامية. العمل في الهواء الطلق على العمل في المختبرات المغلق (مما عزز لدي هذا التوجه هو ان الكثير من المعماريين الدوليين الذين اعرفهم اكدوا لنا بان وجودهم في البلدان العربية والاسلامية ولبره من الوقت كافي ليقودهم الى اكتشاف القدرات الهائلة الوظيفية والجمالية. التي يتمتع بها التراث العربي الاسلامي). وكان مكية اثناء تجواله في الارياف الانكليزية يمتطي دراجة هوائية بصحبة زوجته مارغريت كروفورد والتي انجبت له كنعان ١٩٤٩ وهند ١٩٥٢.. بعد ذلك توفت مارغريت عام ٢٠١٣ وتوفى بعدها مكية عام ٢٠١٥.

انجازاته العمرانية

نفذ محمد مكية عدد كبير من الصروح المعمارية التي لازالت منتشرة في عالمنا العربي كما ترك مجموعة كبيرو من المشاريع الهندسية التي لم تنفذ مخطوطة على الورق. ومن اهم اعماله هي:

– جامع الخلفاء ١٩٦٠.– مصرف الرافدين في البصرة ١٩٧٠. – مبنى الشيخ مبارك –البحرين ١٩٧٣. – فندق هلتون الدولي ١٩٧٤. – مسجد الصديق–الدوحة ١٩٧٨. –مسجد الدولة الكبير في الكويت ١٩٧٨. – جامع السلطان قابوس الاكبر ١٩٩٥. – مقر جامعة الدول العربية في تونس وجامع اسلام اباد في باكستان وجامع روما في روما ايطاليا. وغيرها من المباني المعمارية في داخل وخارج العراق. كما يذكر ان الدكتور مكية كان اول رئيس لجمعية الفنانين العراقيين في بغداد عند تاسيسها عام ١٩٥٦. وانه نتيجة لغياب قاعات العرض في بغداد في الاربعينات فتح بيته لاقامة اول معرض معاصر للفنان جواد سليم ٢١٧٥ محمد مكية.

في عامي ١٩٩٧ و ٢٠٠٧ قمت بمعرضين تشكيليين في كالري الكوفة في لندن. وفي الاول طلب مني الدكتور مكية ان يرى اعمالي التي ستعرض في الكالري فقدمت له نماذج منها فاستعرضها بتفحص الخبير الفني الناقد. وهو ينظر باستغراب وتسائل فقال (اين الاهوار اين مناظر الجنوب؟؟). فقلت له اساذ مكية، هذه اعمال حديثة تعبيرية.. فهز رأسه رافضا. (اين الاهوار؟؟، لك مو الله اهناك.؟. ليش ما رسمتها؟؟). و يقصد هناك بداية الحضارة الانسانية. (شنهو هذه الزعبلات والشخبطات؟؟ لك وين التراث؟).. وفي هذه الاثناء كان هناك المشرفين على الكالري متواجدين ينظرون ويضحكون بصمت و لا يجرئ احد ان يتكلم مع مكية بكلمة واحدة حيث كانت له هيبة وشخصية كاريزما وتاريخ ساطع. وكلمته هي الفصل. وكان المشرف على الكالري الاخ الصديق جواد الخزرجي. وكذلك الصديق الكاتب رشيد خيون فقالا لي بعد ان ذهب مكية: لا عليك انا غدا سأتكلم معه.. واخيرا وافق مكية واقمنا المعرض عام ١٩٩٧.. ومن الغريب ان هذا الخلاف (والاهانة للاعمال) شكل لنا قاعدة صداقة قوية طويلة جدا حتى وفاته. وبعد عشرة سنوات عدت مرة ثانية لاعرض في الكالري وسط ترحيب وعناق اخوي كبير (عام ٢٠٠٧). وقد اشترى مكية من المعرض عدد من اللوحات.. في هذا الوقت قال لي مكية اريد ان تعمل لي معرضا شخصيا عن ملحمة الطف (عاشوراء) وانا اشتري كل لوحاتك؟ (كان يوم ذاك عمر مكية ٩٣ عام).

ومن الفرحة القلبية كانت ارجلي تهتز وكاني طائر في حلم؟. فرجعت الى مدريد وبدأت اخطط واعمل للمعرض بدون توقف. واكملت الرسوم التحضيرية وعددها بالعشرات.. ثم سافرت الى لندن وعرضتها على الاستاذ مكية لنرى رأيه فيها. وكان معي الفنان المصور حسين الاسكافي.. فاستبشر بها مكية واختار منها مجموعة. ثم عدت الى مدريد وبدأت بتنفيذ ما اتفقنا عليه.. وبعد عام من العمل جاء وقت العرض. فاتصلت بالاستاذ مكية في لندن لاخبره بجهوزيتي للعرض وتحديد تاريخ المعرض.. فجاء الجواب كارثيا ومحزنا وغير متوقعا ابدا؟. ان الاستاذ مكية مريضا؟. وان ابنه كنعان قام بغلق الكالري وعرضه للبيع.؟؟؟ حاولت الاتصال بمكية عدة مرات فلم يسمح لي (انه مريض) كما اتصلت ببعض الاصدقاء في لندن لشرح الموضوع فلم افلح؟؟. وهكذا انتهت معركة الطف باستشهاد معرض كاظم شمهود.

عراقيون
من زمن التوهج
ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة
للإعلام والثقافة والفنون
فخري كريم
رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير
رئيس التحرير التنفيذي
علي حسين
هيئة التحرير
غادة العاملي
رفعة عبد الرزاق
يمكنكم متابعة الموقع الالكتروني
من خلال قراءة QR Code:
www.almadasupplements.com
Email: info@almadapaper.net
طبعت بمطابع مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

محمد مكية.. بنى طموحاته على أرض مهتزّة

شوقي بن حسن

في ١٩٦٩، وضع محمد صالح مكيّة (١٩١٤ - ٢٠١٥) تصميماً لجامعة الكوفة، غير أنّ هذا المبنى لن يرى النور. لا زال سبب توقّف المشروع غامضاً، إذ لا توجد رواية عن سبب المنع، سوى ما يمكن أن نستشفه من المرحلة التي اتّسمت بصعود البعثيين للسلطة بعد انقلاب ١٧ تموز/ يوليو ١٩٦٨ ومحاولتهم الهيمنة على الفضاء العمومي.

في ذلك الوقت، كان مكية قد تحوّل إلى شخصية اعتبارية في العراق، بفضل إنجازه قبل أعوام عدة مبان حكومية وخصوصاً بفضل تصميمه "جامع الخلفاء" (١٩٦١) في قلب العاصمة. كانت حادثة الكوفة منعطفاً مهماً في مسيرة تمتدّ على قرن من الأحلام والإحباطات المعمارية.

يمثّل مكيّة جيلاً من المعماريين العرب يربط من درسوا في جامعات أوروبا، وهو واحد منهم، بالأجيال التي تليهم من المعماريين المتخرّجين من الجامعات العربية، إذ كان من بين مؤسّسي قسم الهندسة المعمارية في الجامعة العراقية خلال خمسينيات القرن الماضي.

كان ذلك أول حلم كبير يحقّقه مكيّة، ومن ورائه تطلّع للمساهمة في جعل العمارة عنصراً مشاركاً في تحقيق أحلام العدالة الاجتماعية والنهضة الاقتصادية والعلمية والثقافية في العراق وفي العالم العربي، تلك الأحلام التي رفعها مثقّفو ذلك العصر، وصاغوها في شعارات تبنتها أنظمة دون أن يتحقّق منها شيء.

اقتضى حلم غرس الهندسة المعمارية في الحياة العربية المعاصرة، أن يترك مكيّة موقعه كمدرّس جامعي في بريطانيا، بعد مسيرة من التفوّق العلمي، وأن يعود إلى العراق ليساهم في بنائه. ربما لم يدر في خلده أنه سيعود للاستقرار في بريطانيا مرة أخرى حين لم يعد في العراق متّسع للمعمار والمشاريع.

كشف مكيّة، منذ سنوات التحصيل، عن مَلَكة تجاوب مع الواقع. لعل موضوع أطروحة الدكتوراه يبرز هذه الخصلة، لقد كان عنوانها "تأثير المناخ في تطور العمارة في منطقة البحر المتوسط".

أدمج المعماري الشاب قضايا البيئة في البحث النظري في مجال الهندسة المعمارية، في وقت كانت فيه البحوث متجهة نحو التطوير الجمالي للمنشآت، قبل أن يتحوّل هذا الشأن البيئي إلى توجّه عام بعد سنوات.

بعودته إلى العراق، ظنّ مكيّة أنه يُقدم على خطوة استراتيجية، إذ إن بعث العلوم المعمارية في الدورة الدموية للجامعة العراقية سيوقف التبعية العلمية في الهندسة المعمارية، وبالتالي يوقف التبعية المعمارية، تجاه الغرب.

هذه الطموحات الجريئة والموسّعة كانت تقف للأسف فوق أرض عراقية معرّضة للهزّات المتواصلة وهو ما لم يُمكّنه من حصاد ما زرع، إذ ظل نزيف العقول على حاله.

وهو في العراق، لم يعش مكيّة عزلة المعماريّين أو الأكاديميّين، فقد كان أحد وجوه الحياة الثقافية في بلاده، حتى إنه كان ضمن مؤسسي "جمعية الفنانين التشكيليين العراقيين" في بغداد سنة ١٩٥٥، مع جواد سليم ونزيهة سليم وغيرهما، وصار رئيسها في وقت من الأوقات.

في بغداد الخمسينيات، وإضافة إلى التدريس في الجامعة، بعث مؤسسة "شركاء مكية للاستشارات المعمارية والتخطيط"، ومن خلالها وضع تصميمات تركت بصمتها على الحياة المعمارية العراقية ومنها وصلت شهرته إلى كامل البلاد العربية ثم إلى العالم.

ربما يعود نجاح مكيّة إلى منهجية بسيطة كان يتبناها، تتمثل في تجاوز صنم "أسلوب المهندس المعماري" والذي يحوّله بعض الناس إلى قالب جامد وجاهز. من جهته، ظل يدعو إلى تذويب المبنى في المكان الذي يتواجد فيه وفي سياقه التاريخي وأن يظل فضاء ملائماً لراحة الإنسان.

ثمة كلمة قالها مكية في أحد حواراته الصحافية، باتت تجري مجرى الكلمات المأثورة، يقول: "لو طُلب مني تصميم جامع في لندن لأعطيته ملامح إنجليزية". إن كامل فلسفته تتجسّد في هذه العبارة البسيطة، غير أنها كلمة تحيل إلى عمق وخلفيات.

كان خرّيج كامبريدج نموذجاً لليقظة المعمارية، بمعنى أنه لم يترك ما تعلمه من فكر معماري غربي يتسرّب في أعماله، بل كان ناقداً لهذا الفكر في منابعه. من يتخذ هذا الموقف عادة ما يسقط في الفكر المضاد، ذلك الذي يأسر نفسه ضمن الخصائص المعمارية الموروثة. مكيّة تجاوز هذا المطب بعمق الاطلاع التاريخي على الأماكن التي ينوي إنشاء مبان فيها.

من جانب آخر، كان المعماري العراقي يتميّز ببعد فكري تنظيري قلّما توفر لدى زملائه. وإن المؤلفات الكثيرة حوله، إضافة إلى مؤلفاته، تثير هذه النقطة، فقد كان يحب أن يفلسف الأدوات التي بين يديه ويوظفها بطريقة تخدم الواقع ويعرّضها لسؤاله لا أن يفرضها عليه.

يتلخّص فكر مكيّة المعماري، إن جازت العبارة، في مقولة "المصلحة البيئية العليا". في هذا الإطار يضع صاحب كتاب "بغداد" للعمارة أبعاداً دينية وحداثية في آن. يرى أن المعماري هو التجسيد الحرفي للمسؤولية التي عهد بها الخالق للإنسان بتعمير الأرض كما ورد في القرآن. بهذه الفكرة يستوعب رؤى المدارس المعمارية المعاصرة التي اعتبرت المحافظة على البيئة أولوية "مستحدثة" للعمل المعماري، في حين يبيّن أنها أولوية أزلية.

غير أن كتابات مكية تمرّر لقارئها شيئاً من خيبة أمل صاحبها، بداية من مسقط رأسه بغداد، والمدن التاريخية العراقية، التي ذهبت بروتقها حسابات المقاولين وتقاعس المعماريين. ولعل خيبة الأمل هذه قد تضاعفت وهو يرى التخريب الرمزي قد تحوّل منذ ٢٠٠٣ إلى تخريب مادي ووجودي. خيبة أخرى بدت واضحة في حديثه ومؤلفاته، تتعلّق بضعف التدوين في مجال العمارة، مما يترك هذا الميدان مهمّشاً وأعمال المعماريين بلا توثيق.

أمام التضييق، الذي أخذ يحسّ به في العراق، وجد مكية فسحة بالانفتاح على العالم العربي، دون أن يغيب عن العراق تماماً، كما بيّن ذلك في كتابه "خواطر السنين" حيث يتحدث عن عراق متقلب بطبعه، بين ستينيات الانقلابات وسبعينيات الرخاء وثمانينيات الدماء المهدورة.

في هذه العقود كان المعماري العراقي شاهداً على التطوّر العمراني لمدن الخليج العربي، شاهدها وهي تنتقل من الرمل إلى البنايات الشاهقة. وكأنه اختار أن يضع بصمة مروره ببناء مسجد في كل عاصمة؛ من "مسجد الكويت الكبير" إلى "جامع الصدّيق" في الدوحة إلى "مسجد الشيخ حمد" في البحرين إلى "جامع السلطان قابوس" في مسقط، ليصل بعد ذلك إلى بناء المساجد في أميركا وإيطاليا.

قد يكون آخر أحلام مكيّة المعلنة، هو المساهمة في إعادة إعمار العراق، كان يقول ذلك بروح من الأبوية لا تخلو من حزن أمام ما يجده من تسيّد منطق الصفقات والانتهازية التي حفّت بهذا الموضوع.

ربما كان يأمل أن يخطّط من جديد شارع الرشيد ليعبّر عن عراق يطمح إلى العظمة، أو شارع المتنبي كي يعود إلى دوره التنويري، أو ربما يُرجع لـ "الحيدر خانة" شيئاً من روحانيتها التي فقدتها حين دخل العراق دوامة العنف.

ظل مكيّة يحلم بعمران ينبع من البيئة التي يتواجد فيها، معمار يحترم الناس والطبيعة والمباني المجاورة، لكنه كان شاهداً على انسياق المدن العربية في الفوضى العمرانية، وهو الذي كان يشير إلى أن فساد الذوق وفساد الأخلاق يبدأ من الفضاء الذي يسكن فيه الإنسان. في كل مرة، ما إن تخرج الأشياء من بين يدي مكيّة كان تطوّرها يخيّب ظنه.

• عن العربي الجديد

"20عاماً من التعبير الحر والمسؤولية الوطنية"

عراقيون

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة
المدى للإعلام والثقافة والفنون